غليام الصالح

أقصوصة شرقية

هذه القصة صورة لحادث تاريخي أشار « ابن جبير » في رحلته إلى أشخاصه دون أن يدري شيئاً من تاريخهم الصحيح . وله كل العذر لجهله لغة البلاد الغربية التي زارها ووصفها . فأشار إلى الملك غليوم الثاني (سماه غليام) فصدق في وصفه بحسن السيرة والعدل وعهده بالرخاء والرفه وبالغ حين قال أن علامة أبيه « الحمد لله شكراً لأنعمه » لأن غليوم الأول الملقب بالفاسد كان طاغية فاسقاً جلب على نفسه حرمان البابا ادريان الرابع الذي ألب عليه نبلاء « لابوى » وحرض فردريك الثاني بار بروس أمبراطور ألمانيا على الاغارة على جنوب إيطاليا

وروى أبو الحسن بن جبير في رحلته قصة الأمير ألكسيس وعناية غليوم الثاني به ومساعدته بأسطول ضخم على ألكسيس مغتصب عرش بيزنطيه . وهي قصة صحيحة غير أن الرحالة العربي لم يدر اسم الأمير الذي « رمت به الأقدار إلى جزيرة مسينة » فوردها على حالة ابتذال خادماً لأحد الرهبان مسدلا على شارته الملكية ستراً من الامتهان ففشى الأمر وذاع السر فاستحضره الملك الصقلي غليام « الخ الخ »

وهو الامير ألكسيس ابن « مانويل » أمبراطور بيزنطيه . وأما المغتصب فاسمه الكسيس أيضاً

وأشار ابن جبير أيضاً إلى الأميرة « إيرودياد » أخت الكسيس فقال « وكانت له اخت موصوفة بالجمال الخ »

وأما حكاية العملاق وإقامته في مسينة ففروضة ترمز إلى سكنى المسلمين صقلية وبقائهم فيها بعد تغلب الصقليين عليهم بزعامة « روجيه » الثاني

***

في تلك الليلة الرهيبة من شهر ديسمبر سنة ١١٨٣ عقدت السحب في سماء « مسينه » طبقات ثقيلة قاتمة . وغطت الثلوج الأشجار والبيوت والطرقات وهبت الريح عاصفة

من المغرب وكان البحر يرمي بامواج كالجبال (تتلطم بالمراكب الكبيرة المصطفة في المرسى) وتمتد إلى أكواخ الصيادين المتراصة في جنوب المدينة

ثم لم تلبث السحب ان جاءت برعد قاصف وبرق وسمع الأهالي صوت البركان ترمي بالحمم وكان لسان النار يندلع منه فينير ماحوله من الجبال والوهاد والأكواخ

في ذلك الوقت كان يجتاز الطريق في الظلمة الحالكة وتحت أنوابل المنسكب من الثلج عملاق يضم هيكله العظيم بمعطف سميك من الفرو. على رأسه عمامة عربية وقد وضع يده اليمنى على خنجر كبير في حزامه يتبعه عن كثب زنجي في زي مغربي لم ينج حزامه الصوف من الارتعاش لشدة الزمهرير. وكانت الريح تضرب وجهيهما بقطع كبيرة من الثلج الا أن العملاق كان يمشي بخطوات ثقيلة ثابتة محدقا في الطريق بعين نسر يتبع الزنجي خطواته في صمت وهو يرتعد من البرد

واشتد هبوب الريح حتى كادت تحمل الغريبين وترمي بهما إلى الجبال : ريح عاصفة كانت تكسر الأشجار وتدوي وسط البيوت : وقد تجمد الثلج في الطرقات وعلى الاشجار والجدران وازداد قصف الرعد وانذرت حالة الجو بقرب الزلزال وثوران البركان

وكان العملاق يجتاز الطريق بلامبالاة . وقد تلبد الثلج على لحيته السوداء المرسلة ومعطفه الطويل : وبقيت عيناه الواسعتان تبرقان في الظلمة الدامسة ببريق حاد مخيف ودمعت عينا الزنجي من شدة البرد وابتدأت ساقاه تتخلخلان في المشي وقد تجمد الدم فيهما

وأخيراً بعد مسير ساعة في منعطفات مظلمة متشعبة ومنحدرات من الأرض مليئة بالثلوج قد اماس بعضها حتى لاتكاد تثبت عليه قدم السائر وصل العملاق إلى دار عتيقة الوضع ذات عقود متصلة على الطراز الجوتيقي وباب وثيق من الحديد فتقدم الزنجي وقرع الباب ووقف العملاق ينفض بعض ما تلبد على معطفه من الثلج : وكان لسان النار المتصاعد من فوهة البركان يمزق حجب الظلام ويغمر المدينة بضوء جهنمي

ولما فتح الباب تردد صريفه في جوف الليل ولاح وجه زنجي شيخ يحمل بيده مشعلا : فدخل العملاق ومن خلفه الزنجي الذي كان يتبعه وأغلق الباب بصرير موحش

ولم يكد العملاق يتخطى الباب حتى اندفع نحوه كلب كبير وتعلق باهداب معطفه . فلم يبال به . وتقدم فى دهليز واسع تتوسطه برلة من رخام ذات نافورة ، ومن حولها قامت الأعمدة تحمل المقنطرات المعقودة المزخرفة بالنقوش العربية . وكانت تقل علالى مشرفة ومسيجة بسياج مدهون من الخشب المنجور . انتظمت من خلفه أبواب الغرفات وتخللت ذلك السياج أعمدة أخرى تحمل سقفا مدهونا بألوان زاهية توسطها اللون السماوي فأشبه قطعة من السحاب مخيمة فى أفق الدهليز . وتهدلت على السياج أغصان دوحة باسقة قامت عن يمين الداخل إلى الدار التي كسيت حيطانها بالقيشانى ورصفت أرضها بالرخام

وصعد العملاق سلماً ضيقا يتقدمه الزنجى الشيخ حامل المشعل . وبقى العملاق صامتا مطرقا وقد رفع يده عن خنجره . واختفى الزنجى الذى كان يتبعه

ولما بلغا آخر السلم وقف الخادم الشيخ وأشعل مصباحاً صغيراً كان على الدرج ثم نزل وخلف العملاق وحده

وما كاد الزنجى يختفى باختفاء نور المشعل حتى تقدم العملاق إلى الحائط وضغط بيده فانفتح باب خشبي مسحور من خلفه باب آخر من الحديد ، فتناول العملاق المصباح بيده اليسرى وباليمنى فتح الباب الحديد وأغلق الباب المسحور . واختفى وعادت الظلمة الحالكة إلى السلم

***

وكما يشرف العابد فى منامه على الجنة ويتنسم نسيمها ، استقبل العملاق عند دخوله خدراً يفيض نوراً واريجا وزينة كانه من عمل الجن ، اضطجعت فيه على أريكة من الحرير الاخضر غانية أحاط شعرها الفاحم الاثيث المملوء حرارة ونعومة بوجهها المستدير احاطة الهالة بالقمر

يشوب صفحة وجهها اصفرار لطيف يزيد فى قوة السحر الذى كان يفيض من عينيها النجلاوين . جليلة القوام فى دقة عجيبة وتناسب باهر كأنها دمية من صنع حفار اغريقى تألهت عبقريته

وحين دخل العملاق كانت قد أسلمت للنوم جفنيها فلما خلع معطفه السميك

وألقى به على الأريكة بخشونة انتبهت فى شيء من الذعر ، فابتسم العملاق . وجعلت تنظر اليه فى سذاجة الطفل الغرير . سذاجة لا تتفق بأى وجه مع ما يستجلبه الناظر اليها من معانى حسنها وأمارات النبل التى كانت تبدو فى صورتها

وجلس العملاق إلى الجانب الآخر من الاريكة بعد أن تناول قدحا كبيراً من شراب جرعة واحدة ، وابتدر الحسناء بعبارة مشفوعة باشارة من يده توحى إلى أنها على وشك الانتقال معه إلى مكان بعيد ، فلم تفه بكلمة ولم تبد أية حركة تدل على الرضا أو الامتناع ، وبقيت محتفظة بنظرها الساذج اليه

وبقى العملاق الذى أشرقت صفحة وجهه المهيب يتأمل صورة حسنائه راضيا كما يتأمل المصور الاستاذ أبدع صورة من فنه ، وتمادى به شعور الرضا فجعل يحدث نفسه بصوت مسموع : نعم إلى قرطبه أو إلى بغداد ، ولعلنا نوفق فى مصر إلى من يدفع ثمن هذه الجوهرة . . فى مصر ؟ . . تباً لصلاح الدين لقد جعل حياة أهلها جهاداً مستمراً

ثم طلب العملاق إلى الحسناء بالكلام وبالاشارة أن تناوله جام الشراب ، ولما نهضت لكى تملأ القدح جعل يراقب مشيتها وقوامها وحركاتها مراقبة دقيقة ، كأنها جارية فى سوق الرقيق . وفى الحقيقة أنها لو كانت جارية فلا يكون العملاق إلا نخاسا

* * *

ولما أقبلت نحوه رفع قدحه لكى تصب الشراب فيه بيدها البضة التى كانت تحمل الجام ، وكان يراقب بعين الرضا انبساط ساعدها الوردى البشرة حين تملأ القدح ، وما فى موقفها من جمال وسمو وما يبعثه النظر اليها من الاستمتاع واللذة وبالاختصار كان يراقبها بنظر نخاس أو أمير شرقى وهبه حب الثرى فطرة النخاس فى النظر إلى المرأة . ولو أنه كان أميراً لما كانت الا جاريته ولو أنها كانت جاريته لما احتاج إلى أن يضعها فى مثل ما يضع القرصان أغلى اسلابهم

غير أن الحسناء حين بسطت يدها بالجام لكى تصب منه فى القدح انتفضت فجأة وسقط الجام من يدها والتجأت إلى ركن الخدر فزعة فعل الطفل الغرير ، ووقف العملاق ووضع يده على خنجره شاخصاً إلى الباب المسحور الذى سمع لأول مرة طارقا

يقرعه بقبضة حديدية ثقيلة . ولم يكن يدرى أحد مكان الباب من الحائط ولا مكان الخدر من الباب . كان خدر الحسناء أشبه بمكمن زعيم عصابة أو قدس أقداس لا يقربه أحد غير العملاق

وتوالى قرع الباب بشدة . وكان العملاق قد اندفع كالبرق وأوصد الباب الحديدى ووقف من خلفه يسترق السمع قابضا بيده على خنجره .

وسرعان ما أحس بأن الطارق اقتحم الباب الخشبى . ووصل الى سمعه وقع أقدام كثيرة مندفعة نحو الباب الحديدى . وصوت آمر باقتحامه .

وما كاد الصوت يبلغ أذن العملاق حتى زأر كالحيوان المفترس وتحفز للوثوب لمن يريد قتل عدو . وكأنما سر هائل يتعلق بصاحب الصوت ويهدد حياته بالخطر

وقد سقط فى يده حين ابتدأ الباب الحديدى يتزعزع أمام نظره دون أن يستطيع دفع الخطر الداهم الذى يتهدده .

ولم يكن ثمة بد من التسليم .

شعر العملاق بأنه أصبح أسيراً فى بيته وانه يوشك أن يسلب أغلى ما يملك وهى حسناؤه وان جلده معرض لطعنات بعدد ما يحمل الذين يهاجمونه من سيوف وخناجر

ولكن لم يفقد العملاق قوته المعنوية برغم فجائية الحادث واستبعاد وقوعه فى ليلة عاصفة ينهمر فيها الثلج ويقصف الرعد ويخشى من زلزال الارض .

وقف ثابتاً كجزع الدوحه الضخم قابضاً على خنجره متحفزاً للوثوب .

٥٥٥

وحين سقط الباب الحديدى كان العملاق قد اشتبك فى عراك دموى عنيف مع أربعة رجال مسلحين بالسيوف وفى غضون ذلك كانت تدوى فى أركان الدار صيحات رعب ألمية صادرة من قلب الحسناء ثم أغمى عليها وتبعثر أثاث الخدر وانقلبت الأريكة ولم يلبث العملاق ان هوى على الارض مثخنا بالجراح فوضعت الاغلال فى يديه ورجليه

ودخل الخدر المستباح على الاثر فارس انيق البزة رطيب غصن الصبا صقيل رونق النبل كأنه من بيت الملك فانحنى له الرجال المسلحون .

واتجه الفارس الى الحسناء وحملها الى الاريكة ولم تكن قداستفاقت من غشيها بينما كان الرجال المسلحون يحملون العملاق المغلول وهو يهدر كالثور الى خارج الخدر

وما زال الفارس بالحسناء ينبهها في حنو ظاهر كأنما تصله بها صلة غرامية أو أو قرابة فقد كانت الدموع تسيل من عينيه وهوما يفوق حد العطف المألوف الذى تفيض به القلوب الرحيمة نحو المظلومين

وعلى الاخص اذا صدرهذا العطف من فارس ألف التجلد امام الحوادث

وتبين وجود هذه الصلة عندما فتحت الحسناء عينيها فما كاد نظرها يقع على الفارس حتى أصعدت آهة فرح وارتمت على صدره معانقة فى شوق الطفل الى أبيه بعد غياب طويل ودمعت عيناها من جديد لشدة سرورها باللقيا وجعلت تهذى باسم : ألكسيس ألكسيس

وبقيت ترديد هذا الاسم ملتصقة بصدر الفارس كأنها تريد ان ينتقل من قلبها الى صدره كل ما جرى لها منذ عهد الفراق واذا كان حقا ان بين القلب والقلب رسولا فلا شك فى ان الفارس قد أحس بكل ما كابدته الحسناء عند ماسالت الدموع غزيرة من عينيه وحين استسلم لتأثير الشكاية المرة التى بثها اليه ذلك الرسول الخفى فجعل يردد فى بكائه السم: أيروديا. أيروديا

***

واهتزت أركان الدار بصرخات داوية كأنها صادرة من شخص يجلد أو يعذب بآلات بليغة الأذى .

ولو كانت الدار موطن تعذيب لما كان جلادها إلا العملاق ولكنه أصبح أسيراً مغلولا ، أسير أولئك الرجال المسلحين الذين اقتحموا داره عنوة فى ليلة عقد النية فيها على الارتحال وأوشك ان يبلغ الغاية من أمله العظيم الذى علقه على الحسناء فى الوقت الذى جعل فيه من الخدر الكمين سوقاً للرقيق بضاعتها أيروديا البريئة وزين له أن يستمتع فى فترة ما كان أقصر عمرها واشأم عقباها باشباع نظره وحواسه من رؤيتها.

هذا الجبار الذى كان منذ برهة سيداً مرهوب الجناب أمسى يجلد ويعذب فى

عقر داره . واختلطت صيحاته بقصيف الرعد بينما كان الفارس يحاول أن يستوضح من « ايروديا » ما كابدته فى جوف تلك الدار العتيقة الموحشة . وما كان أشد دهشته حين لاحظ عجزها عن البيان وكأنها لم تكن من قبل فى تلك الحال من البله وأن ثم حادثاً فجائياً مروعاً ناءبتأثيره المقوض على أثمن ملكاتها : النطق والادراك وكأن الطبيعة التى تنافس كل جليل باريها بمزاياه استطاعت فى آخر الأمر ألا تجعل الكمال من صفات ذلك الحسن وفى الحق أن « ايروديا » كانت فتنة تشغل العابد عن صلاته .

واقترنت دهشة الفارس بالألم العميق لما استحال عليه أن يدرك شيئاً من لهجة « ايروديا » المنحرفة واشار أنها الطفولية فنهض وقد ثار دمه وتناول يدها واتجها إلى دهليز الدار حيث كان العملاق تحت آلة التعذيب .

ولم يكن من الممكن تصور الحال التى آل اليها مصير ذلك الجبار فقد جرده الرجال المسلحون من صداره . وأوقدوا النار ووضعوا فيها سفافيد غليظة من الحديد وجعلوا يكوونه . وجلس على مقعد من أمامه فارس مهيب الطلعة فاخر اللباس قد تدثر بدثار سميك مفتوح الجانبين مخرم الذيل ومطرز بالذهب صلباناً على سروال يلتصق بجلده وقبعة مطوية من الخلف مرفرفة من الأمام وصدار أسود طويل الكم يشد وسطه بحمائل سيفه من الذهب المرصع بالأحجار الكريمة . وكان يحيط به عدد ليس بالقليل من الفرسان على طرازه فى اللباس . وكانوا جميعاً مكشوفى الرءوس وقوفاً إلا هو فقد كان جالساً فى عظمة ملكية يستنطق العملاق المغلول .

ووقف عن كثب من أداة التعذيب راهب شاحب اللون كان يومىء إلى العملاق بسبابته من آونة لأخرى ينذره بأشد القصاص إن لم يعترف بالحق

٥٥٥

ولاحظ زعيم الجماعة الجالس أن العذاب قد برح بالعملاق المغلول فخاطبه بلهجة عربية فصيحة : قل الحق ياخواجه ابراهيم فانى أعدك بالعفو إذا اعترفت بسر اختفاء الأمير « اندرونيك » زوج الأميرة « ايروديا » . هل قتلته حقاً فى جبال « قونية » ؟

فجعل العملاق يهدر ويعج وقد تجمع الزبد على شدقيه

فتقدم الراهب وانحنى أمام الجالس على المقعد وقال : يا صاحب الجلالة انى واثق بأن هذا القرصان قتل الأمير اندرونيك فى جبال قونية

فالتبط الخواجه ابراهيم عند سماع تأكيد الراهب بانه القاتل .

وإذ ذاك أشرف ألكسيس مع ايروديا على الفرسان المجتمعين حول صاحب الجلالة فانحنى له الجميع

واتجهت الأنظار إلى الأميرة « ايروديا » التي أخفت وجهها بيدها كأنها استحيت من رؤية الرجال

ونهض صاحب الجلالة من مجلسه وتقدم اليها وقد بهره حسنها فقبل يدها فخاطبها ألكسيس مشيراً اليه . صاحب الجلالة غليوم الثاني صاحب الصقليتين

فانحنى جميع من في الدهليز من الفرسان والجنود عند سماع هذه العبارة ولم تزد « ايروديا » على أن طأطأت رأسها في سمو ونبل أخفت ثغرها الكرمزي عن ابتسامة تنم عن الرضا حين التفتت فأبصرت الخواجه ابراهيم يعذب بالسفافيد تحمى في النار ثم يكوى بها جلده ولم تتمالك عن النظر اليه بأشد الازدراء

وأقبل نحوها الراهب تبدو عليه دلائل الفرح ولثمها في جبهتها وباركها

ثم طأطأ رأسه وقال لها بتأثر ظاهر ألا تذكرين يا مولاتي ؟

فاجابه « ألكسيس » بلهجة تنم عن الحزن العميق — وا أسفاه يا أبي . لقد اصبحت « ايروديا » عاجزة عن البيان .

فازداد سخط الراهب على العملاق . وبدا الاسف على الملك غليوم الثاني ورجاله وتأيد لديهم اجرام الخواجه ابراهيم الذي كانت السفافيد المحماة قد نالت من جلده ابلغ النيل والذي كان يبرطم ويهدر . وقد شعر بأن الملك غليوم لاشك مصدر أمر بإعدامه ميدان مسينه العام .

وتقدم الكسيس نحو الخواجه ابراهيم وركله بحذائه وخاطبه — لأنت قاتل ابن عمي اندرونيك ايها القرصان النذل سوف تلقى جزاء ما ارتكبت يداك الآثمتان .

اذ ذاك قطع تمتم العملاق المكتوف بقوله : عفوك ايها الامير .

فالتفت اليه الملك غليوم وقال : الآن بدأت تطلب العفو .

فصاح الراهب مبتسما ابتسامة صفراء : لقد ثبتت جريمتك ايها القرصان . ولابد ان مثولك أمام مجلس الخمسة .

وكان غليوم الثاني الملقب بالصالح ملكا حكيما شمل بعدله اهل الصقليتين . إلا انه

كان عظيم الدهاء . وهو خلق ورثه عن ابيه غليوم الاول الملقب بالفاسد وكان طاغية فاسقاً عظيم الشره . استثار من حوله عداوات الملوك والامراء وعلى الاخص « فردريك الاول باربروس » امبراطور المانيا وجلب على نفسه حرمان البابا ادريان الرابع . وكانت مدة حكمه تتخللها الحروب والثورات والفتن . غير انه بدهائه خرج منها فائزاً مظفراً .

ومعنى الدهاء فى صيغة ذلك العصر المظلم أن الغاية تبرر الواسطة: الغاية التى حملت غليوم الثانى ملك الصقليتين على الانتقال من قصره فى ليلة عاصفة تحت وابل الثلج المنهمر لكى يقتحم دار احد القرسان بجنوده. ويبتدى إلى باب الخدر الذى لا يعلمه أحد غير صاحب الدار. ويبدى عظيم الاهتمام للوقوف على مصير الامير « اندرونيك » زوج الاميرة « ايرودنيا »

وكان غليوم الثانى قد جاوز الثلاثين ولم يخلف ولداً يرث عرشه. وكانت قصوره فى مسينه والمدينة تحوى جملة كبيرة من الجوارى الموصوفات بالجمال ولكنه لم يسعد بخلف . وكان فى حالات قنوطه من الحصول على ولى عهد يفكر فى أن يوصى بعرشه الى الامبراطور هنري الرابع زوج « كونستانس » ابنة « روجيه الثانى » (صاحب الادريسى) . وهو بعد أن اعان البابا اسكندر الثالث بجيوشه ضد الامبراطور فردريك باربروس لكى يمحو من جهة غلطة ابيه مع سلفه البابا ادريان الرابع الذى كان قد حرمه وألب عليه بلاء « لابوى » ومن جهة أخرى يرفع عن كاهل بلاده الجزية السنوية التى كانت تؤديها الى ذلك الامبراطور الالمانى : وامد بجيوشه مدينة « صور » التى كان يحاصرها صلاح الدين . واستعد لارسال اسطول مؤلف من ثلاثمائة مركب الى القسطنطينية لمحاربة مغتصب عرش الامبراطورية البيزنطية — انغمس فى نعيم الملك وملاذه ومظاهر زينته وابهته واتخذ المنجمين والاطباء . وملأ قصوره المشيدة بالحاشية والفتيان والجوارى وتشبه بملوك المسلمين فى الترف وتنظيم قوانين الملك ووضع أساليبه وتقسيم مراتب رجاله وفى الملابس الفاخرة والمراكب الفارهة . وجرى على سنة جده « روجيه » الثانى فى اصطناع المسلمين من اهل دولته وزراء وحجابا .

ولكن بقى غليوم الصالح بلا ولى عهد يرث عرشه .

***

فاذا كان ملك الصقليتين قد رضى بان يترك قصره فى ليلة ذات رعد و برق وثلج منهمر لكى يقتحم برجاله دار الخواجا براهيم ، ويقف موقف المستطلع لمعرفة مصير امير بيزنطى لاتصله به اية صلة فلا شك فى ان هناك باعثا خفياً حمله على كل هذا التنازل . وأى باعث اقوى من الحب ينزل المليك العظيم الشأن منزل الرجل العادى . اذن فالملك غليوم الثانى يهوى الاميرة « ايروديا » . وهو من اجل ذلك يريد ان يعلم مصير زوجها . ومن اجل ذلك رأى أن يستعمل دهاءه الموروث .

فاقترب من القرصان المطروح على الارض وقال : أتدرى ياخواجه ابراهيم ان جريمتك مزدوجة . أولا انك تشتغل بالنخاسة وهى محرمة فى بلادنا على امثالك ممن يهددون سلامة الاهالى قال الراهب : ويربى فى هذه الدار ايضا صنفا من الزنوج المتوحشين الذين يأكلون الاطفال !

واستطرد الملك كلامه : .. ثانيا ان الادلة تثبت اغتيالك لحياة الامير اندرونيك فى جبال « قونية » . غير انى اعفو عنك واطلق سراحك اذا اعترفت بجريمتك .

فاجاب الخواجه ابراهيم بصوت ضعيف : نعم . اعترف . ولكنى وحقكم لم اكن اعلم انه الامير اندرونيك . فقد كان يرتدى بلباس فارسى عند ما صادفته فى قافلة تجتاز جبال « قونية » . وكانت « ايروديا » ترافقه على جواد . فجأة بين الجبال اسد عظيم الجثة . وقد اصيبت ايروديا عند رؤيته بالذهول ولما أوشك الاسد أن يفترس الامير « اندرونيك » حملت عليه بسيفى فقتلته ولكن بعد أن انشب مخالبه فى امعاء « الامير » فطلب الى ان اجهز عليه لكى اريحه من آلامه .

فضحك الملك غليوم ضحكة مصطنعة وقال للقرصان : هذه لعمرى قصة من اختراعك اعجب فيها ببراعتك .

فجعل العملاق يبرطم ويتمتم مردداً كلمة العفو .

وقد ثبت لدى الملك ورجاله انه قتل الامير اندرونيك وسلبه زوجه التى حملها الى

مسينه لكى يرحل بها الى المشرق . وهناك يعرضها للبيع فى سوق الرقيق .

* * *

ولما كان الملك غليوم الثانى اعتاد ألا يصدر أمرا ولا يبت فى مسألة دون ان يستفتى عرافه الراهب . أخذ بيده وانفرد به . فاشار عليه ان يسلم القرصان الى الجلادين . وان يبقى « ايوديا » فى القصر الابيض الى ان يتم الفوز لشقيقها الاميرالكسيس . وكان غليوم الثانى قد اعد له ذلك الاسطول الضخم المؤلف من ثلاثمائة مركب لكى يسافر به الى القسطنطينية فيسترد عرش ابيه « مانويل » .

وفى تلك الليلة الرهيبة من شهر ديسمبر سنة ١١٨٣ نقلت الاميرة « ايروديا » من خدرها الكمين الى قصر ابيض كالحمامة مطل على ساحل البحر . وألقي بالخواجه ابراهيم فى غيابة سجن « مسينة » . وعاد الملك غليوم الثانى الى مجلس انسه بين جواريه المسلمات يطلب إليهن ان يذكرن دينهن لعله يقى البلاد شر الزلزال . ويفكر فى جيوشه التى تحارب مع البابا اسكندر الثالث ضد فردريك باربروس امبراطور المانيا والتى تعين مدينة « صور » على حصار « صلاح الدين » . ويحلم بالايام السعيدة المقبلة التى يستمتع فيها بجمال وربما بحب الاميرة « ايروديا » التى كانت تطفو فى سماء حلمه بشأنها امنية غالية ولكنها بعيدة وهى ان يسعد بولى عهد منها يرث عرش الصقليتين .

بينما كان الامير الكسيس قد عاد الى حجرته المنفردة من القصر الملكى وجلس يحادث امير البحر الذى سيقود الاسطول الى القسطنطينية لمحاربة ألكسيس المدعى مغتصب عرش بيزنطية ورد ذلك العرش إليه بصفته الابن الشرعى للامبراطور « مانويل » .

ولم يكن أقل املا من امير البحر فى الفوز على المغتصب .

وقد ازداد تفاؤلا باجتماع شمله باخته الاميرة « ايروديا » من بعد التشتت والفراق الطويل .

واستغرق الامير « الكسيس » فى بحر عميق من الاحلام والذكريات على اثر انصراف امير البحر .

جعل يحلم فى البدء بالاحتفالات الباهرة التى سيلقاها فى القسطنطينية موطنه بعد التغلب على المغتصب ، وحفلة تتويجه الجليلة فى كنيسة « أياصوفيا » . وذهب به الخيال

الملئ بالبشرى الى حد ان تصوره كأنه قد ركع امام البطريرك لكى يضع على رأسه تاج الامبراطورية الشرقية .

غير انه حين رفع يده الى تلك الرأس الجميلة المكللة بخصل شقراء من الشعر الناعم أحس بامها مكشوفة ونبهه الواقع الى إنه لا يزال ضيف ملك صقلية الذى أكرم مثواه ورفع مقامه،اذ ذاك تذكر فراره من معقله الحصين فى القسطنطينية والتجائه متنكراً الى « مسينة » حيث آواه الراهب « سيكست» وكيف اسدل على شارته الملوكية ستراً من الاسبان تخدم الراهب فى الدير حينا ثم دخل القصر الملكى فى جملة الخاصة لما صار الراهب « سيكست » عرفا لغليوم الثانى . وكيف دلت عليه مخايله الملوكية فاعتنى به الملك وازكى عيون الحراس عليه خوفا من اغتيال يلحقه بدسيسة من ابن عمه الذى اغتصب عرشه .

«تذكر الأمير الكسيس فى مرارة مطاردة اعوان المغتصب له ووقوعه اكثر من مرة ونجاته من الشراك التى كانوا ينصبونها لاغتياله . وكيف وفقته المقادير فى النهاية الى التلاقى باخته فى « مسينه » نفسها بعد أن اهتدى الى مكانها باعجوبة :

وأخيراً كيف استعان بالراهب « سيكست » الذى كان مربيا له من قبل التجأ بها الى « مسينه » هرباً من طغيان المغتصب على اقناع غليوم الثانى بأن يساعده على استرداد عرشه

وهنا عاد الأمير الكسيس الى احلامه الحلوة بالفوز على ابن عمه ودخول القسطنطينية مظفرا وعقد الكرى اجفانه بينما كانت ثورة الطبيعة خارج القصر تزداد شدة ولما ينقطع انهمار الثلج : وبقي جسمه اللين ممدداً على كرسيه فى قصر ملك صقلية فى حين كان الحلم قد اسرى بروحه الى سماء القسطنطينية وحلق بها فوق ابراجها وقصورها واشجارها

عبد الحميد سالم